الحياة الأدبية فى الحجاز

بقلم عبد المجيد شبكشى

كان الأدب العربى مثال الكمال والروعة والازدهار والانتشار فى دولة الأمويين وفى صدر الدولة العباسية . وكان نصيب الحجاز من هـذا الازدهار طيباً مرموقا ، واقتضى خلوه من الأحداث السياسيه أن يحيا مغموراً حتى تجرد من العلم والثقافة وصفر من من الرجال الممتازين ، وعملت الهجرة على محو مقوماته ومميزاته

ثم بدرت بادرة من بوادر النهوض ونسمة من نسمات الحياة بعد فنفخت فى الحجاز روح اليقظة الفكرية فأخذ يسترجع ماضيه بفضل جهود البعض من أبنائه المخلصين الذين جرى فى عروقهم الدم الحجازى الحر فتأثروا لتدهوره تأثراً قوياً جعل قلوبهم تتقطع أسفاً وحزناً على الماضى العزيز الذى ذهب هباء منثوراً وغرق الحجاز بعده فى الجهالة وأضاع تراثه المجيد

مرت اليقظة فى أفكار بعض شباب الحجاز وأحسّوا بالواجب الوطنى وتنبهوا إلى فضل الأدب فى نهضات الشعوب فتأسست لجان للاجتماع ، ونواد للأدب حيث قاموا فنشأوا حركة أدبية لا تشوبها شائبة بالنسبة إلى تلك الحالة وبالنسبة أيضاً لعدم وجود مؤهلات كافية لدرس الأدب ، حتى المدارس كانت إذ ذاك بسيطة جداً يتخرج منها التلميذ وهو لا يعرف من مواضيع الحياة شيئا

ثم جاء دور التكوين للنهضة الفكرية وكان ذلك قبل عشرة أعوام تقريباً نظم فى خلالها أدباء الحجاز الشعر وكتبوا النثر ونشروا نماذج منه وأعلنوا عن أفكارهم وسجلوا آراءهم ، فشعر الحجاز حينذاك بدبيب الحياة يتمشى فيه ، وأحس بجمال الأدب والفن معاً ، وحينذاك قام أحد أدباء الحجاز البارزين[1] وأصدر كتاباً أدبياً يضم بين دفتيه مختارات لأدباء الحجاز فأثبت للأمة أن هناك أدباً راقياً يدعى الأدب الحجازى . وقد تجد فى هـذه المجموعة روح الحجاز الأدبية ممثلة من حيث صحة النزعة وبساطة التفكير وجماله ، فكان عمل هـذا الأديب بشير يقظة فكرية منظمة ،

وقد كان الأدب الحجازى فى ذلك العهد بسيطاً شأن كل شىء فى بدايته . ولكن الأفكار كانت سائرة مع الحياة متأثرة باتجاهها فلم يمض وقت طويل حتى نضجت تلك الأفكار ، وازدهر الأدب بعض الازدهار ، ولولا ما نشأ بعد من عوائق شتى وقفت بالحرية الفكرية بعض الشىء لاطرد تقدمها . ونستطيع أن نقول بحق إن الموفقين من شباب الحجاز فى الناحية الأدبية قليلو العـدد جداً ، والكتاب البارزين فى الحجاز لا يزيدون على عشرة ، ولكن أقلامهم الممتازة هى التى صورت مبلغ تأثر الحجاز باليقظة الفكرية ومدى إدراكه . أما قراء الأدب فكثيرون وهم ممن أنجبتهم المدارس الحالية ، وهؤلاء بلا شك يرجى لهم مستقبل طيب مرموق

والحجاز اليوم بفضل الله ثم بفضل جهود أبنائه المخلصين متقدم بخطوات واسعة الى الامام ، وميال الى احتـذاء أدب مصر ونزعاتها الفكرية ، ولا غرابة إذا شابه البعض من أدباء الحجاز بعض أدباء مصر فى روحهم الأدبية وصار يكد ويجتهد فى الحصول على ما يريده فوق ذلك من المثل الأعلى حتى يدرك المرمى الذى يقصده !

والأدب الحجازى اليوم رمز لما فى أفئدة الحجازيين من عواطف واحساس وحب وولاء ، ولما فى نفوسهم من شعور وكرم أخلاق ، ولما فى ضمائرهم من مبدأ واستقامة وغرام عميق بالحرية . وتختلف الأوساط الأدبيـة اليوم باختلاف قوتها ومداركها وتطورها وتجددها وبما يستتبعه هذا الاختلاف من تأثر بأساليب النقد البرئ والتأمل الممتع والبحث الناضج ، أو النقد المتهافت والنظرات الجوفاء والبحث الضعيف الخ ، وهذا الاختلاف يعطينا صورة واضحة للتطور والتجدد فى الأفكار تتحد مع نواميس الكون فى نشوئه وتطوره . وليس غريباً على الحجاز أو الحجازيين أن يتأثروا بمؤثرات هذا العصر الحديث وفنونه ونزعاته ، وأن تكون حياتهم ميالة الى اقتباس أساليب جديدة فى الحياة والأدب ، فان ذلك من بوادر النجاح وأسبابه ، وهو دليل اليقظة ، ونؤمل أن ينال الحجاز نصيبه من التقدم والشهرة والحرية التى هى من مبادئ الحياة الصحيحة فى هـذا العصر . على أن هذا الروح الأدبى السامى المتمثل اليوم فى

(١) هو الأستاذ محمد سرور الصبان مدير إدارة وزارة المالية